النهار
٢٠٠٠/٥/٢٧

فكُّ الحِداد وبهجة العقل

واخيراً يجيب الجنوب عن سؤال واحد من كبار ابنائه الشاعر عباس بيضون، ويعرف من أين يدخل في الوطن، فيكون حلم ليلة صيف ربيعية، ويكون الرجاء، كل الرجاء، في أن تدوم. ولعل أول شرط كي تدوم هو الاسترسال لها ولفرحة الحلم، فلا يثقل الاحتفال بالتحرير زغل في غير مكانه، مهما تكن الجروح ثخينة، ولا يخالط الابتهاج بالحرية تحفّظ في غير زمانه، مهما تكن احتمالات الميدان مقلقة. حلم ليلة صيف، ولا شيء يفرض الاستفاقة منه على وجل.

حتى التخوّف مما بدأ يظهر من انتهاكات عشوائية، او الأسى من مشاهدة اسرائيل، تلك الآلة المنتجة للاجئين طوال نصف قرن، تستعد لاستغلال صور اول لجوء عربي جماعي اليها. وكم بالأحرى المساجلة الصامتة حول لون الطرف المقاوم وخيار المقاومة المسلّحة سبيلاً وحيداً للتحرير لا يزال البعض يعتبر انه فُرض على حساب خيارات ديبلوماسية كان يمكن ان تأتي، بعد مؤتمر مدريد، بالنتيجة نفسها بكلفة أقل وسرعة أكبر. فاذا كانت هذه السجالات منطقية، بل ضرورية في زمن الاحتلال والتفاوض، فانها صارت بلا جدوى الآن وقد تصبح مصدر ضرر. التاريخ لا تعاد كتابته.

هذه المقاومة هي التي كانت، وهذا التحرير هو الذي تحقق، والتحرير، أياً يكن سبيله، خيرٌ مطلق. به ربح "حزب الله" رهانه، وهذا في السياسة يفترض تقديراً خاصاً يضاف الى التقدير المتوجب لتضحيات مناضليه ونجاحاتهم الميدانية. حلم ليلة صيف اذاً، والسؤال الآن كيف الاستزادة منه لتغذية تطلعات اخرى لا تكون أحلام... يقظة. ربما كان السبيل الى ذلك باستخلاص دروس الواقع الذي انتج الحلم. ولأننا في لبنان، ولأن "الساحة" اللبنانية جعلها غنى التناقضات الفاعلة فيها وتعدد اللاعبين الممسكين بها اشبه بطاولة البلياردو، حيث الضربة الأكثر إحكاماً تنتهي بتعرجات في مسار الكرات لم يحسبها اي حساب، فان الاستنتاجات التي يمكن تسطيرها تأخذ دائماً شكل المفارقات.

نجاح حتى الفشل اعمق هذه المفارقات ما يتعلق باللاعبين الاقليميين فهي تنبع من تداخل المستويين التكتيكي والاستراتيجي، واختصارها ان ليس من يملك الورقة الرابحة، بل قل الورقة التي انتهت فعلاً بالربح، هو في الضرورة الرابح الاخير وان الخاسر في الملعب الصغير يبقى متحكّماً في اللعبة متى نقلت الى اطار اوسع. تلك هي مفارقة سوريا، راعية المقاومة في جنوب لبنان، ورأسها السياسي منذ بداية التسعينات. فهي كانت قد نجحت، من خلال الغطاء السياسي والدعم المادي المؤمّن للمقاومة من جهة، والتحكّم في المسار اللبناني تحت شعار "تلازم المسارين" من جهة اخرى، في الامساك بمنطقَي "الثورة" و"الدولة" معاً، وبورقتَي الكفاح المسلح والحوار السلمي تستخدمهما بالتداول.

ومن نافل القول ان هذه الهندسة الدقيقة للغاية كانت تفيد في تعويض سوريا عن الخلل في ميزان القوى الاستراتيجي دعماً للتوجه الذي تريد ان تعطيه لعملية التسوية الاقليمية. وللتذكير، فان هذا التوجه، الثابت ظاهراً او بلاغياً، خضع لتعديل في نهاية التسعينات. فبعدما كان في مرحلة اولى يؤول الى الحد من تسارع هذه العملية مع الحرص الدائم على إبقاء المسار حياً (والحوار مع الولايات المتحدة قائماً) من دون افق محدد، جاء اكتساب فكرة اقفال ملف الصراع العربي –

النهار
٢٠٠٠/٥/٢٧

الاسرائيلي طابعاً ملحاً، ليبعث تمني سوريا انجاز سلام لا يحقق لها اقل مما حصلت عليه مصر لجهة استعادة كامل اراضيها المحتلة، ولكن بثمن رمزي اضعف من زاوية العلاقات المستقبلية مع اسرائيل. وقد بدت هذه المعادلة، ولا سيما في تركيزها على خط ٤ حزيران و"وديعة رابين"، وكأنها الوحيدة القابلة لملاءمة استدامة الخطاب القومي في دمشق ومتطلبات الشرعية الوطنية اللازمة لتتويج "الحركة التصحيحية" ب"حركة اصلاحية تجديدية" عبر تنظيم عملية "خلافة" هادئة ومضبوطة. اختلت هذه المعادلة عندما تنبه الاسرائيليون الى ان يمكن تعطيلها بمجرد نجاحهم في ادارة... فشلهم اللبناني.

فبعدما أمّنت رافعة الجنوب المدعومة بمقولة تلازم المسارين عدداً من التنازلات الاسرائيلية حتى بات ٩٩ في المئة من الاتفاق على المسار السوري جاهزاً، جعل اقتراب موعد الانسحاب الاسرائيلي من المستحيل الركون الى هذه الرافعة لتأمين الواحد في المئة المتبقي، وخصوصاً ان النجاح الاعلامي المتحقق لاسرائيل جراء قطع وعد الانسحاب سنح لها تحييد القوى الدولية وتالياً توجيه اوضح التهديدات الى سوريا للمرة الاولى منذ ازمة الصواريخ ربيع عام ١٩٨١.

هكذا وجدت سوريا نفسها امام انقلاب مريع: ما كان يمكن ان يؤدي الى نزع جنوب لبنان والجولان معاً من الاحتلال الاسرائيلي مع توكيد موقع القوة السوري في لبنان، وعبره في الشرق الاوسط، يفضي الى تحرير الجنوب دون الجولان، ويطرح مسألة الأرجحية السورية في لبنان! قطعاً، لا يعني ذلك ان كل أمل في تحرير كامل الجولان قد تبدد، ولا يمكن استبعاد لجوء ايهود باراك الى مبادرة سلمية تفي الشروط السورية المتعلقة بشاطئ بحيرة طبريا. ولكنه حتى إن فعل، فان استيفائه الشروط السورية لن يتسم بطابع الضرورة والاضطرار الذي كان يتأتى من المعادلة اللبنانية السابقة، وتالياً ان الثمن المقابل، وفي جانبه الرمزي، قد يكون أغلى، ولا سيما في مسألة تحديد الاحجام الاقليمية بعد التسوية.

وليس من قبيل الصدف ان يبدأ الحديث في هذه المرحلة تحديداً عن "استئناف الصراع على سوريا"، على ما ذهب اليه الكاتب المصري جميل مطر، وهو ما كان حسمه الرئيس حافظ الاسد بنقله بلده الى موقع اللاعب في "الصراع على الشرق الاوسط".

لا يستتبع المفارقة السورية ان اسرائيل لم تتكبد خسارة. ولعل مفارقة اسرائيل اعقد، بسبب تعدد المعارك التي تواجهها وتفاوت مستوياتها. فاذا كانت مفاعيل الانقلاب الاستراتيجي الناجم عن الانسحاب تضافرت مع شعور التخلص من "ورطة" لبنان لتخفف من مرارة الخسارة، وهذا ما بدا في تبدل لهجة الصحافة الاسرائيلية بين بداية انهيار ميليشيا لحد واكتمال الانسحاب الرسمي بانزال العلم الاسرائيلي واقفال البوابة دون سقوط قتيل او جريح، فان الوعي الجماعي الاسرائيلي سيعيش مع فكرة الهزيمة، وإن تكن فرعية او حتى هامشية. ولن يقلل منها ان الظروف الذاتية الاسرائيلية هي ما جعل الهزيمة ممكنة، تلك الظروف الكامنة في ضعف الرهان الاسرائيلي على لبنان منذ فشل اجتياح ١٩٨٢ في فرض نظام تابع في بيروت فالانسحاب الاول للاحتلال عام ١٩٨٥. وما يلفت في هذا المجال ان معدل الخسائر البشرية التي كان يتكبدها الاحتلال سنوياً في العقد الاخير كان اقل بكثير، ورغم النجاح النوعي المضطرد للمقاومة الاسلامية بدءاً من ١٩٩٣، من الخسائر التي مني بها في المرحلة الاولى من المقاومة بين ١٩٨٢ و١٩٨٥.

وهذا ما يؤكد ان قابلية تحمل الخسائر تكبر و تصغر وفقاً للرهان السياسي السائد، أكثر مما تتأثر بحجم الخسائر نفسها. وفي ذلك ما يدفع الى التعامل بحذر مع دعوات لم تتأخر الى تعميم نموذج المقاومة على جبهات عربية اخرى. اذ سيلزم ان تُمنى اسرائيل باضعاف اضعاف خسائرها اللبنانية في الجولان حتى تقتنع بالانسحاب منه، حتى لو كانت مستعدة لذلك من خلال المفاوضات.

النهار
٢٠٠٠/٥/٢٧

هذا كي لا نتحدث عن القدس... درس اخير يمكن استخلاصه من التصرف الاسرائيلي وربما الاتعاظ منه سواء لاستثماره في معارك مقبلة او لتعديل شيء من خطابنا الكفاحي نفسه، وهو لا جدوى خطاب الكرامة بالمقارنة مع معايير اكثر مادية، وإن تفاوتت تعبيراتها بين الرأي العام، الذي تحركه متطلبات السلامة الأمنية، والقيادة السياسية - العسكرية الباحثة عن ديمومة السلامة الاستراتيجية والمستعدة للتضحية بموقع من أجل كسب اللعبة الأكبر. مفترق بعد الذروة قياساً بالمفارقات الاقليمية، تبدو الاستنتاجات اللبنانية الداخلية لمرةٍ ابسط. واوضح هذه الاستنتاجات يتصل ب"حزب الله". ما من شك هنا: لقد ربح "حزب الله".

ربح جهاداً استحوذ على معظم طاقاته وطورها في آن واحد. وهو بهذا المعنى بلغ ذروته يوم ٢٤ ايار ٢٠٠٠، ومفارقته مثل كل من يبلغ الذروة انه صار محكوماً باستحالة الصعود اكثر، اي في احسن الاحوال بالمحافظة على المرتبة التي وصل اليها، وفي اسوأها بمباشرة النزول منها. وهو بذلك اشبه بالحزبين الشيوعيين الايطالي والفرنسي، اللذين كانا فاعلين اساسيين في مقاومة شعبيهما ولم يكن ممكناً تسلّمهما السلطة لظروف دولية قاهرة في نهاية الحرب العالمية الثانية. ليست ظروف "حزب الله" الدولية مقيِّدة الى هذا الحد، وان يكن يستحيل تجاهلها. ما يقيّده هو تنوع المجتمع اللبناني طائفياً وكون احتلال الجنوب وتحريره لا يختزلان كل المسألة اللبنانية ما بعد الحرب. لذلك، يقف "حزب الله" اليوم امام مفترق.

فاما ان يختار تحويل عصبيته الجهادية، المستندة الى شبكة خدماتية لا يستهان بها، قاعدة لممارسة زبائنية تغذي نفسها بنفسها على غرار ما فعلته قبله حركة "امل"، مع ما يعني هذا من سعي الى المشاركة في السلطة وتقاسم منافعها، واما ان يتجه الى تشكيل قوة تغيير في المجتمع اللبناني، وهذا على الارجح هو تطلع معظم كوادره. على ان الاتجاه الى الانخراط في تيار واسع للتغيير (الوطني وليس الفئوي) يصطدم بمجموعة من المعوقات، ابرزها على المستويين الطائفي والعقيدي. فمن الزاوية الطائفية، لا حاجة للكثير من التحليلات لملاحظة سقف التحرك الذي فرضه على نفسه "حزب الله"، أياً تكن دعواته الى الانفتاح والتواصل مع الطوائف الاخرى. اما العائق العقيدي، فهو يتمثل في تمسك الحزب بالخمينية في لحظةٍ تحاول ايران التحرر منها. ويبدو ان الحزب لم ينتبه بعد الى ما تثيره هذه الهوية العقيدية من تشنّج، رغم كل ما يسمعه عن ايران ومنها.

وقد كان لافتاً ان يغلب هذا الثبات العقيدي على الحفل "الخاص" الذي تم تنظيمه لاستقبال الاسرى المحررين في مقر الحزب في الضاحية الجنوبية، حيث تم تزيين رؤوسهم بشارات حمراء تحمل عبارة لا لبس فيها: "لبيك يا خميني"، في مشهد ذكّر بقوافل المتطوعين الذاهبين الى حقول الالغام في الحرب ضد العراق. ولعل هذا المشهد يفيد بأنه حتى لو تم التخلي لفظياً عن وزر بعض العقيدة، وهذا ما يجب مساعدة كوادر "حزب الله" فيه، فان عائقاً آخر يتولد منها، وهو ما يمكن تسميته ثقل المخيلة.

ربما كانت ثقافة الحزن عامل تعبئة ثميناً في زمن الاحتلال والمقاومة، وإن تكن تجارب شعوب اخرى لا تؤكد ذلك، الا انها تعطي مردوداً معكوساً على الأمد الطويل عندما تأتي لحظة فكّ الحداد. فمع كل التعاطف المطلوب اظهاره حيال اولياء الشهداء والجرحى والاسرى المحررين، ان فك الحداد هو المهمة المطروحة اليوم على "حزب الله"، فهل يملك وسائلها؟ وهل يقدر على "عاشوراء للفرح" تتفتح فيها مئة زهرة؟ هنا مفارقة "حزب الله" الأكبر، وهي الأدهى من استحالة استمرار الصعود. ففك الحداد مسألة لا يملك فيها هامش مناورة مماثلاً للذي نَعِمَ به في ظل تلازم المسارين.

فهذه اللحظة الرمزية تحل من دون قرار وتستمر وتكبر بمجرد ان تستمر الظروف الطبيعية المرشحة لأن تترسخ مع عودة الدولة. ولنا في تجربة ما بعد الحرب خير دليل على حتمية استبطان

النهار
٢٠٠٠/٥/٢٧

المواطنين، لا ارادياً واحياناً ضد اقتناعاتهم، فكرة ترميم العلاقة مع الدولة. لذا، يتوجب ربما الامتناع عن التركيز على مفارقات السلطة اللبنانية في تعاطيها مع قضية الجنوب.

فعند هذه اللحظة، لم يعد مهماً ان تكون السلطة حصلت على النتيجة التي كانت تعلن التخوف منها (الا اذا كانت في الاشهر الماضية تتمنى عكس ما تقول!). والاهم، هنا ايضاً، هو الاسترسال لحلم ليلة الصيف. ومن اجل الحلم عينه، لن يرفض احد التسليم، مع الخطاب الرسمي، ان السلطة اللبنانية ساهمت في التحرير، بدعمها المقاومة منذ استعادت هذه الاخيرة فاعلية ميدانية نحو العام ١٩٩٣، ومن لا يسلّم بعقله، فليفعل بايمانه. فالشعوب في حاجة الى اساطير تأسيسية، والافضل ان تكون جامعة.

اما وقد سلّمنا بهذا الدور، فالانصاف، فضلاً عن مفهوم استمرارية الدولة، يفرض الا يتم اجتزاؤه، فاستخدامه فئوياً، بل ان يتم الاقرار بفضل كل الذين اداروا سياسة دعم المقاومة منذ ذلك الوقت، ولا سيما رئيسا الجمهورية الياس الهراوي واميل لحود، ورئيسا الحكومة رفيق الحريري وسليم الحص، ورئيس المجلس نبيه بري صاحب فكرة اقامة "يوم الجنوب" السنوي والذي رغم حدود فولكلوريته اثّر في تعميم وعي الاحتلال عند الاجيال الجديدة من غير الجنوبيين. ولئن كانت مراقبة مجمل الفترة تفرض توزيع الفضل بالتساوي على المسؤولين المتعاقبين في مناصب ادارة البلد، الا ان معاينة ربع الساعة الاخير تتطلب الخروج عن قاعدة التساوي رفعاً للغبن الذي يلحق بالجندي المجهول لهذه النهاية السعيدة، نعني سليم الحص. في مديح سليم الحص... لا يعرف سليم الحص ان له محبين كثراً، وإن عرف فهو يتجاهلهم، بل يتفنن في تثبيط عزائمهم. هذا ما كان منذ عاد الى رئاسة الحكومة في بداية عهد الرئيس لحود.

ولأن محبي سليم الحص كثر، بل اكثر بكثير مما يوحيه عدد صوره في الشوارع، فان الخيبة كانت كبيرة من رؤيته يقع، هو رجل العقل البهيج والمبادئ العنيدة، في اسر لعبة السلطة الخفية، فلا ينجح في منع التخبط في الاصلاح والاقتصاد وتقييد الحريات والتلاعب بالتمثيل الشعبي. ومع ذلك، بقي سليم الحص عامل اطمئنان حتى عندما يئس. بل عاد بوصلة للتفاؤل عندما انصرفت السلطة عن الهموم الداخلية الى "همّ" الانسحاب الاسرائيلي. فسليم الحص كان من القلة لم يعتبر الانسحاب همّاً، وانما فرصة.

واذا كان قد اعطى حقاً، في سنته الاولى، الى الذين انتقدوا جمعه رئاسة الحكومة ووزارة الخارجية، حيث بدت هذه الوزارة بلا رأس سياسي، الا انه عاد وانقذ ما تبقى من الديبلوماسية اللبنانية في الاشهر الاخيرة، فهو من ابقى على خيط الحوار جدياً رصيناً مع الاسرة الدولية والأمم المتحدة. وهو من انبرى الى صد انحرافات شطّار المناورة الذين يحسبون أن الديبلوماسية تختصر بربح الوقت وتضييع الفرص. وهو في النهاية من انقذ القرار ٤٢٥ من الضياع بين ملفات الصراع العربي - الاسرائيلي المعقدة، فاعاد لبنان الى الخريطة الديبلوماسية بعدما كاد الاكثار من الاسئلة يكرّس شطبه. ... ومطالبته بالمزيد لكن محبي سليم الحص ينتظرون منه الآن المزيد، فنجاحه في اعادة الدولة اللبنانية محاوراً دولياً، وهو الشرط لعودتها راعياً ميدانياً لأمن الجنوب والجنوبيين، يرتب عليه مسؤولية ارشاد السفينة الى حيث تتأكد الطمأنينة.

فبعدما اثبت ان لا غنى عنه في هذا الحكم، إن شئنا ترشيد السياسة، وليس فقط الانفاق، بات مطالباً اكثر من اي وقت مضى بأن يضطلع بدوره كاملاً غير منقوص كرئيس للحكومة يحل ويربط في كل المسائل، فلا يقبل بعد الآن ما يرتعد منه ضميره، من حدّ للحريات واسكات للتساؤلات (غير الرسمية)، وكوزير للخارجية يستطيع البناء على انجاز التحرير لاستكمال عودة الدولة اللبنانية.

النهار
٢٠٠٠/٥/٢٧

وهذا يعني في ما يعني ان عليه ان يرعى منذ هذه اللحظة ادارة المسألة السورية في لبنان، بما يتعدى الثنائيات التبسيطية. فاذا كان لا يجوز الانطلاق مما حصل في الجنوب للقفز الى "حرب تحرير" اخرى لا تحمد عقباها، فانه لا يمكن ايضاً التغافل عما حصل.

وبين التسرع في المطالبة بانسحاب الجيش السوري والاستمرار في تغطية سياسة الوصاية، ثمة خيار ثالث تحتاج اليه سوريا بقدر ما يحتاج اليه لبنان، ويتمثل هذا الخيار في جعل "المسألة السورية في لبنان" عنواناً لمهمتين. الاولى هي حماية خاصرة سوريا في لبنان عسكرياً، وذلك يتأمن بشكل افضل من خلال مرابطة الجيش اللبناني مع قوات الأمم المتحدة في الجنوب، ولا سيما على بوابة ثغرة البقاع، ولكن ايضاً ديبلوماسياً باستعادة تلازم المسارين باعتباره تلازم توقيت السلام واسرائيل.

اما المهمة الثانية، فهي تحويل الوصاية السورية الراهنة شراكة بين البلدين، بما يعني ذلك من تصحيح للعلاقات المميزة وشفافية في ممارستها، حتى ننتقل من علاقات تبدو مفروضة الى تعاون تعاقدي يؤسس لمستقبل الشعبين. لا شك ان هاتين المهمتين لا تنجزان بيوم وهما تتطلبان تراكماً طويل النفس، لكن التراكم يبدأ بنقطة، وهذه النقطة موعدها اليوم، اولاً لأن التحرير كما حصل انتج وضعاً يتطلب انتشار الجيش بسرعة، وثانياً لأن المجتمع اللبناني على موعد مع انتخابات كان بدأ ييأس منها سلفاً.

انهما ملفان برسم سليم الحص، ولا عذر لأحد في ان يعرقل امساكه بهما، وان تطلب الأمر تعديلاً للحكومة. ولا عذر لديه في الاحجام عن ممارسة رشده وتعقله ومبادئه. فذاك ليس الا القليل المتبقي حتى يكتمل فكّ الحداد ببهجة التأسيس، لكنه القليل الذي لا غنى عنه.

سمير قصير

النهار
٢٠٠٠/٥/٢٧

Id-Reference	**00-Pr-000403**	
Media	**(Support)**	HC
Title		فكّ الحداد وبهجة العقل
Subtitle		نجاح حتى الفشل، مفترق بعد الذروة في مديح سليم الحص،... ومطالبته بالمزيد
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		١ تتمة ١١ 1 + 11
Date		٢٠٠٠/٥/٢٧ 27/05/2000
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	حزب.الله – مقاومة، سليم.حص
	Locations	لبنان – جنوب – اسرائيل
	Dates	..:..:1982, 24:05:2000
	Themes	لبنان.جنوب – اسرائيل – تحرير – حزب.الله.مقاومة – سوريا – جولان – انسحاب – لبنان – تسوية – حزب.الله – عقيدة.خميني – سلام.ثقافة.حزن – حزب.الله – بعد.تحرير – سليم.حص – أمم.متحدة – خارجية – حوار – لبنان – سوريا.نظام – وصاية – تلازم.مسارين – لبنان – سليم.حص – جيش.جنوب N.B. الشاعر.حسن.عبد.الله وليس عباس.بيضون
Subject		